

## باب التهذيب والتعلم

﴿ الطريق القويم . للتربية والتعليم <sup>(١)</sup> ﴾

(٢٧) من أواسم الى هيلانه في ٢ اغسطس سنة - ١٨٥  
اذكر ان رجلاً فاضلاً من أصدقائي كان قد وجد في نفسه انبعاثاً الى  
التربية فاجب عليها الاشتغال بها ثم انه انشُدب لادارة مدرسة كان غيره  
انشأها فالتقى نظام التأديب فيها بالنأ من الشدة غايتها اذ رأى فيها افراداً من  
التلامذة يخلصون بالعقوبة دون غيرهم فيقضون ساعات الاستراحة في قناتها  
كل يوم جنباً اوقياً في مواقف الجزاء ولم يكن يوزها شيء مما تشرف به  
من طرق العقاب كالتكليف بمضاعف العمل والحبس والمنع من الخروج لانها  
كانت سائرة على الاصول القديمة القويمة ! فما لبث صديق هذا ان ابطل  
كل ذلك النظام التعديبي دفعة واحدة لعلمه بأنه لا يرهب الا الجبناء ولا  
ينشأ عنه أثر للتهذيب في نفوس المتعلمين وقال للتلامذة انا اعلم من  
سيما قبكم بعد الآن ان اتم اساتم ذلك هو وجدانكم الذي لا ينجو من  
سوط عذابه من اعفى من ضرب العصا

كان شعار هذا الرابي في تعليمه « لا قلنسوة لعالم ولا لجار » <sup>(٢)</sup>

وكان التلامذة قبل وجوده في المدرسة لا يتسنى لهم ان يخطوا خطوة  
في دهايزها الطويلة وفي عرصاتها وقاعاتها الفسيحة الا وهم مصطفون مشي

(١) معرب من كتاب اميل القرن التاسع عشر (٢) القلنسوة في نظام التعليم

الاوروبي شارة العلماء ينالها من اتم دراسته وادى الامتحان فيها

مشى تحت رعاية كبير لهم كانوا يسمونه ضابط الرجالة تكاماً به ويكرهونه من صميم اقتداتهم ولا يفترون عن مما حكته وابتلائه بضروب الخيل والخبث فجميعهم المعلم الجديد ليلقي عليهم نبأ عظيماً فقال لهم : إعلوا انكم من الغد احرار لا سيطرة لأحد عليكم وانه لن يرعاكم في سيركم وسيرتكم سوى عين الواجب الذي تشعرون به . ولا أراني بعد هذا في حاجة الى القول بأن كلامهم بمجرد سماعه هذا التنبيه قد اعتبر طاعة النظام من أمس الامور به والزمها له

وبينما كان في يوم من الايام مجتازاً حديقة المدرسة بصحبة تلميذ تسلق عريشة كرم ممتد على جدار عتيق يتدفق من فوقه ضوء الشمس واتشاً يأكل من قطفه أكلاً لما فتظاھر له بالفضلة عن فعله ورجاه ان يلتصق له امين المدرسة فاتاه من فوره يتبعه الغلام الهاب والريبة تدب الى نفسه فقال المدير للامين كيف يصح ايها السيد ان لا يعطي هذا الغلام من الطعام كفايته فانه لم يكفد يخرج من قاعة المائدة حتى جاء الى الكرم وطفق يجني قطفه خلسة فارجو ان تأخذه الآن بنفسك وترده الى المظم ليأكل ما يكفيه .

كان هذا المرابي اقل الناس شياً بمديري المدارس وكان من اجل ذلك محبوباً لتلاميذه فاني كثيراً ما رثيت لحال معلم الاطفال الذي هو شهيد الشهداء لمقتهم اياه مع احسانه اليهم وعلى كل حال لست ادري ان كنت غخطاً في ذلك او مصيباً واني لا اخال الطفل كفوراً بعممة معلميه ولكنهم هم الذين ارادوا ان يطعموه من باكورة العلم صاباً وعلقماً كيف لا وفي التعلم سعادة المتعلمين وفي التمرين والتدريب حياة لكل قوة من قوى الانسان

ولا شيء الا وهو يطلب الوجود والظهور والنمو وهكذا شأن التلميذ وانما القهر هو الذي يحيل فرحه الى ترح وصرحه الى خمود فانه يجيء الى المدرسة وللحياة فيه دوي كدوي النحل فيجد مديرها عابس الوجه متمسكاً بالكتب واثقاً بها ثقة الظالم الغاشم فياله من تنشيط للاحداث وترغيب لهم في التعليم !!

الكتاب الذي ينبغي ان يتعلم منه الحدث هو صحيفة الموجودات والمدارس خلوا منها

انك اذا دخلت غرفة من غرف المدارس لا تجد فيها سوى مكاتب ملطخة بالمداد ومقاعد من الخشب غير مستوية القوائم وجدراناً اربعة عارية من الزينة وسقفاً مرفوعاً على خشب غليظة خشنة يمتد بينها نسيج العناكب التي هي عوامل الضجر المحزنة فاذا نظرت خارج تلك الغرفة من نوافذها المفتوحة رأيت الطيور مطلقه السراح مفردة في الجو كأنها تسخر من التلامذة فان الكون الخارجي كله اصوات واصوال واشكال والوان تدعو الطفل الى التعلم بواسطة مشاعره واما هذه الغرفة فلا شيء فيها يستلفت نظره فقلبا يوجد فيها صورة وشيء من خرائط تقويم البلدان وما عساه يوجد من الصور قديم قبيح ومن الخرائط فهو يشبه خط قدماء المصريين في غموضه وتجرده من الرونق وقصوره عن تمام البيان فأقسم بالله على المتولين امر التربية ان يدخلوا في هذه المقابر التي اعدوها للاحداث نفحة من نفحات العالم الخارجي وشعاعاً من اشعة الحياة

كل امة تعنى بالتربية حق العناية ينبغي ان لا تخلو مدرسة من مدارسها من نظارة معظمة ( ميكروسكوب ) لمضاعفة اجرام الاشياء التي لا ترى

بمجرد النظر ومن مرقب ( تليسكوب ) تسهل به رؤية اشكال اقرب الكواكب الى الارض ومن كرة جوفاء تمثل في باطنها اقسام الدنيا (جيوراما) ومن مربى للحيوانات والنباتات المائية ومرآة للصور الماثلة (استير يوسكوب ) وبالجملة يجب ان يوجد فيها جميع الادوات اللازمة لتحصيل معنى الكون وآياته الكبرى في أذهان الناشئين .

اعلم ان اللفظ والحط طريقان قاصرتان جداً عن اصال العلوم الى نفس الحدث وان اللازم له انما هو رؤية الاشياء فلربيه توجيه فكره ولو قبل تعليمه القراءة الى أمور كثيرة لا تخرج مجال عن متناول ادراكه . ورأى فيما عليه المربون الآن هو انهم يفرطون في التعجيل بتعليمه بعضاً من فروع العلم كان حقها التأجيل وفي تأجيل بعض آخر كان اولى بالتعجيل وكان يجب عليهم في اختيار العلوم وترتيبها ان يرجعوا الى درس القوانين التي يجري عليها الانسان في نمو جسمه ونفسه وعقله .

قولهم « لما يجيء وقتي » كلمة تصدق على معظم قوى الانسان في ساعة ما من عمره فالطفل يدرك من الاشياء أبعادها وعلاماتها الظاهرة ولكن عقله في غاية القصور عن الاحاطة بما بينها من الروابط فهو اشد قصوراً عن النفوذ فيما تجري عليه من القوانين وعن تتبع سلسلة الاسباب التي نشأت عنها خصوصاً واليافع يتأثر بالقضايا الشعرية وترتاح نفسه اليها ولا يعيل الى القضايا المنطقية والاصول الحكيمية ومن حاول استمالة اليها فقد عبت والسبب في هذا ان ضروب الاستعداد المناسبة لهذه العلوم العقلية لما توجد فيه او انه لم يوجد منها الا جراثيمها فالادراك لفظ عام يدخل في مفهومه عدة قوى متميزة كل التمايز لا تنمو الا بالتدرج ولكل

منها طور كون ثم تظهر تامة في ذلك لجملة من الحوادث تغير بتغير الأشخاص وما يحيط بهم ولكنها على التحقيق محدودة بنواميس الكون والزمان فافكارنا ووجداناتنا لها اعمار كاعمارنا .

الشيء الواحد يقتضي ان يتعلمه الانسان عدة مرات ومن وجوه مختلفة . خذى لك مثلاً : الطفل لا يرى في الوردة بادىء بدء الا وردة ثم اذا نمت فيه قوة الادراك قليلاً انتزع من شكلها ولونها ورائحتها مثلاً عقلياً ممتازاً يعرف به الوردة كلما وقعت في يده وهو في هذا الطور من الحياة لا يهتم بمرتبها التي عينها لها علماء النبات في ترتيبهم ولا بتكوينها ومعيشتها فلنك طائفة من الشؤون والافكار يجب على صريه الاحتراس التام من الخوض معه فيها اذا كان يعنيه ان لا يضل مدركته وكذلك الشأن في جميع الموجودات .

اذا اردت ان اعلم « اميل » علم طبقات الارض ( الجيولوجيا ) مثلاً وهو العلم الذي يعتبره المارفون ابا العلوم فاني انبه اولاً الى ما يوجد في الاحجار بل في حصا الطرق من اشكال المخلوقات المضيوية المنطبعة عليها فان حبه للاستطلاع وميله للاستئثار بالمعرفة مع مساعدة القرص يعودانه في اقرب وقت على تمييز أهم العلامات التي توجد في دفان الارض من بقايا تلك المخلوقات فجميع ذلك مناسب لسنه او قريب منه ثم بعد ذلك بضع سنين ادعوه الى ان يقيس ما يكون قد جمعه من هذه النموذجات بمضه ببعض وان يرتبها على حسب ما بينها من التشابه وفي هذا الوقت دون غيره اتلطف في تسريب معنى اطوار الارض وعهودها الى ذهنه واقص عليه تاريخها مستعيناً بتلك الحصا والحجارة فقد قال شكسبير « ان في الحجارة

لموعظة وذكري « وانا اقول ان فيها ما هو اسمى من ذلك فهي وحي يلمسنا كيف خلقت الارض ثم اذا بلغ « اميل » الثامنة عشرة او التاسعة عشرة من عمره اي صار في سن يؤهله لفهم كل ما أقوله له حق الفهم استغنت بعلم طبقات الارض على تعليمه حكمة التاريخ فهو امثل مقدمة لها .

فيا كاشفتك به من افكارى هذه غناء عن تعريفك اننا لا ينبغي لنا في تعليم « اميل » ان نعول على شيء من المؤلفات الموجودة فالوجيزة منها والصغيرة والكتب المدرسية التي بين أيدي الاطفال جميعها وضعت لغير الوجهة التي تقصدها فانها مختصرات علمية توهم واضعوها انها تكون ملائمة لادراك الاحداث بسهولة عباراتها وليس الميب هنا في شكل الكتب وانما هو في أصل وضعها فان أول شيء يتسنى للطفل إدراكه من نظام الكون هو ما كان يدركه منه الانسان في أول نشأته قبل تقدم العلوم وتقسيمها فالمعلمون لا يفتأون ينسبون ان المعاريف والتقسيم والقوانين لم توجد الا بعد التجارب كما ان علوم اللغة متأخرة عنها في الوجود وكذلك علوم الدين وينيب عن اذهانهم ان علوم الانسان لم تتكون البتة بالصورة التي يتعلمها عليها الاحداث الآن فان الانسان لم يصل الى ايجاد طائفة من العلم محدودة الا بالانتقال من حادثة جزئية الى اخرى ومن سلسلة من الحوادث مرتبطة بعضها ببعض الى غيرها وبعد ان وجدت له طائفة منها نشأ يستنبط لها القوانين التي تضبطها ثم تفرعت دوحة المعارف وتمايزت فروعها وانفصل كل علم عن الآخر

فالجرى في تعليم الطفل على غير هذه الطريقة قلب لنظام عقل الانسان فالمعلمون انما يلقون عليه نتائج العلوم وخلاصاتها قبل ان تؤسس قوته

الحاكمة بمبادئها وتدعم بمقدماتها قترينهم يحدرون مرة واحدة من الذروة التي رقى اليها العلم في عصرنا بعمل الاجيال الماضية الى ما هو فيه من حضيض الجهل . والذي يستحسن أولئك المعلمون تسميته مبادئ العلوم انما هو في حق الطفل من ثمرات العقل البالغ في تحضيرها ومن نتائج ربط الاشياء بعضها ببعض .

انا لا اجري على هذه الطريقة في تعليم « اميل » فاني اود قبل ان اعلمه تاريخ الموجودات ان اعرفه بما في الكون فأجمل له به انساباً بان اوجه نظره الى حوادث الحرارة والضوء والكهرباء قبل تعليمه قوانين علم الطبيعة واعلمه شيئاً من اوصاف اشكال الاجرام السماوية ومواقعها من قبة افلك قبل الخوض معه في علم الحياة بل ان قصدى الى ان اشرح له في المستقبل ما اعلمه من نواميس الكون اقل بكثير منه الى ايقاظ وجدان الملاحظة فيه فان تعليم الطفل ليس بشيء يذكر وانما الامر الخطير هو ان يؤتى وسيلة التعلم بنفسه وتحرك فيه دواعي الاقبال عليه فدروسي « لاميل » كلها لا يكون فيها الا ما كان له شأن في تنبيه عقله وتقويته لانه مرجع جميع علومنا على اختلافها .

قد رأيت مما قدمته لك انه قد قضي عليك ان تكوني « لاميل » كتاباً يأخذ عنه علمه فلا تستعيني بشيء من صفار الكتب وموجزاتها ومختصراتها وعليك ان تتدبى له أبسط المعاني وأيقها بحالة ادراكه مع التدرج في ذلك بحسب ارتقائه في الفهم وان تجعلي تعليمك مطابقاً لحوال سنه . اهـ

(استدراك) سقط من السطر الاخير من الصفحة ٨٤٨ « المكتوبة ٨١٨ غلطاً » كتبتان

فكتب « ومصادقات الحق والباطل » والصواب « ومصادقات يتردد بينها الحق والباطل »